الاستخلاف في القرآن الكريم

"رؤية موضوعية"

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

Almajeedye

نصائح المعرفة القرآنية

قرآن نتلوه لانسانة نرقى

الاستخلاف في القرآن الكريم

(رؤية موضوعية)

د. عبد السلام مقبل المجيدي*

ملخص البحث

يتكلم البحث عن الاستخلاف في القرآن الكريم دراسة موضوعية، فالاستخلاف يعطي الصورة الدقيقة للهوية الإنسانية، التي تبين حقيقة الوجود الإنساني في الأرض، وقد تم فيه بحث معنى الاستخلاف، وبين البحث أن مبدأ الاستخلاف يوضح أصول السياسة العامة التي يجب أن يسير عليها الإنسان في حياته الفردية، كما ينبغي أن تتحرك بها الدول في خططها التنموية، وذكر البحث أن المراد بالخليفة هنا إما المعنى المجازي وهو الذي يتولى عملاً يريده المستخلف، فالإنسان هو الموجود الوحيد الذي استطاع بما أودع الله في خلقته أن يتصرف في مخلوقات الأرض بوجوهٍ عظيمة لا تنتهي خلاف غيره من الحيوان، وإما أن يراد من الخليفة معناه الحقيقي أي إنسان يخلف غيره، ويخلفه غيره من جنسه وذلك إذا صح أن الأرض كانت معمورة من قبل بطائفة أخرى، أو يكون المراد تداول الخلافة والتعاقب عليها بين جنس الآدميين، وتطرق إلى مدى جواز إطلاق مصطلح (خليفة الله) على الإنسان، ثم ذكر أهداف الخلافة الإنسانية، ولخصها في أمرين: القيام بأمره من خلال عبادته المحضة، والقيام بأمره من خلال عمارة الأرض، وفصل الواجب الإنساني لتحقيق هدفي الاستخلاف من خلال سياسة الدين والدنيا بالحق (العدل والقسط)، وذكر العلاقة بين هدفي الاستخلاف والحكم بين الناس بالحق، وبين أن إعمار الإنسان المستخلف للأرض يقوم على ركيزتين: العدل الذاتي والسياسي العام، والإحسان للنفس وللناس، وأكد على أن الله هيأ للإنسان جميع ما يلزمه للقيام بواجبات الخلافة سواء كانت التهيئة ذاتية، أو بيئية التي تقتضي النماء والتصرف والإعمار، وبين أن ذلك يقتضي الفرح بالدنيا وإعمارها ضمن حدود طاعة الله تعالى، وعرَّف بتفاوت درجات الاستخلاف بين بني آدم، كما جلَّى الصورة الكونية ومقامات الاستخلاف، وأنها مقامات أربعة أساسية: مقام المَلَكات الوهبية والقدرات الكسبية، ومقام الأفعال والتصرفات الإنسانية وما يترتب عليها من مسؤولية، ومقام الحكم والملك الإنساني على أفراد بني الإنسان، ومقام المال والموارد الاقتصادية، وأشار إلى التناسق العجيب والترتيب بين هذه

---

* أستاذ مشارك للدراسات القرآنية – كلية التربية - جامعة ذمار.

المقامات في القرآن الكريم، ثم عرج على أهم معالم مبدأ الاستخلاف: ومنها أن الاستخلاف تشريف وتكليف، ومنها: إمداد الإنسان المستخلف بالخصائص الضرورية الأصلية، والتبعية، وما يترتب على هذه الخصائص كإمكانية الخطأ والصواب من الإنسان المستخلَف، وذكر أن من معالم الاستخلاف: العلم فهو دليل التأهل للاستخلاف، ووضح أركان الاستخلاف، وأنها خمسة أركان، الله الخالق، والمخلوقات الأخرى المناظرة للبشرية، وآدم- عليه السلام- والبشرية من بعده، والأرض، والعلاقة بين هذه الأركان الأربعة، وختم ببيان قانون المسؤولية الاستخلافية، ونوع العمل المطلوب من الإنسان المستخلف، وكيفية استمرار خلافة الإنسان في الأرض.

المقدمة :

الحمد لله على آلائه...هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله...لقد جاءت رسل ربنا بالحق، ومقال الصدق، صلى الله عليهم أجمعين...اللهم صلِّ على محمدٍ صلاةً أزدلف بها إلى مغفرتك، وسلم عليه تسليماً أُحْشَرُ بهِ في زمرة أوليائك...صلِّ وسلم عليه عدد خلقك، ورضا نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك، وعلى آله وأصحابه الكرام الطيبين، الأخيار الطاهرين...وبعد:

فهذا بحث في أصل الوجود الإنساني تكلمت فيه عن الاستخلاف في الرؤية القرآنية، وراعيت فيه تطبيق منهجية التفسير الموضوعي في جمع الآيات التي ذكرت فيها هذه المفردة القرآنية (الاستخلاف)، والربط بين معانيها، واستنباط مضامينها ودلائلها من خلال كلام أئمة التفسير، وأرباب التأويل، وبناء الرؤية القرآنية للموضوع المراد بحثه وهو هنا (الاستخلاف)، ومعرفة المناسبة التي يبينها السياق، أو ورد بها نقل الأئمة الحذاق، أو اقتضاها ما بينها وبين نظائرها من الاتفاق... وموضوع الاستخلاف قد كتب فيه عدد من المفكرين أبحاثاً متنوعة منها:

1) كتاب الاستخلاف والتمكين لعيسى بن درزي المبلغ الصادر عن دار الأندلس للنشر والتوزيع- حائل.
2) الاستخلاف للدكتور محمد عبد الله الطيار، وتكلم فيه عن الاستخلاف في الصلاة.
3) ورد الكلام عن هذا المفهوم في كتاب صحيح مسلم، وذكر الشراح باب الاستخلاف في الإمارة.

وسبب اختياري لهذا الموضوع: أن الاستخلاف صورة للهوية الإنسانية، تبين حقيقة الوجود الإنساني، وطبيعته، ووظيفته، ومآله، وعلاقته بخالقه، وعلاقته بما حوله من المخلوقات مادة كانت أو حركة (كائنات أوأفعالاً)...فاقتضى ذلك النظر في: معنى الاستخلاف، وخصائصه، وأهدافه، والواجب لتحقيق أهداف الاستخلاف، ومقاماته التي توضح الحياة الإنسانية، وأهم صفات الإنسان المستخلف، وكيف تمت تهيئته للقيام بواجبات الاستخلاف وتبعاته في الأرض...وهو ما يتم بحثه في الأسطر الآتية إن شاء الله تعالى، ولأن المقصود هو المادة العلمية، ولئلا يطول البحث فقد أعرض الباحث عن ترجمة الأعلام، واقتصر على ذكر توثيق المرجع كاملاً في فهرس المصادر .

وقد قسم الباحث البحث إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أصل مبدأ الاستخلاف .

الفصل الثاني: أهداف الخلافة الإنسانية .

الفصل الثالث: أهم معالم مبدأ الاستخلاف .

الفصل الأول: أصل مبدأ الاستخلاف:

المبحث الأول: النص القرآني على الاستخلاف:

صدر الأمر الإلهي من الله تعالى الذي يعلم غيب السموات والأرض بأن يجعل الإنسان في الأرض خليفة، وقد ذكر الله - تعالى ذكره- ذلك في دستور الحياة الكونية فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:30)، وهذا النص ورد في سورة البقرة، وهي أول السور المدنية نزولاً[1]، كما هي أول سورة من حيث الترتيب المصحفي للقرآن الكريم بعد سورة أم القرآن[2]، ولعل من أسرار النص القرآني على ذلك مما تضمنه معنى الآية:

1) أهمية الأمر بالنسبة للإنسان المستخلف، والمخلوقات المحيطة به كالملائكة والجن؛ ولذا أخبر الله تعالى الملائكة بذلك، وأمرهم بالسجود للمخلوق الجديد، وشمل الأمر بالسجود من كان حاضراً من الجن كإبليس .

2) يشكل الاستخلاف صورة للهوية الإنسانية بياناً لحقيقة الوجود الإنساني، ولذا جاء النص عليه في أوائل القرآن الكريم من حيث الترتيب المصحفي لأنه ينبني على تقرير دلائله وعلى أحكامه ما بعده، فهو أساسٌ للتصور القرآني حول الوجود الإنساني وعلاقته بالله تعالى، وبالمخلوقات الكونية من حوله.

3) يوضح مبدأ الاستخلاف أصول السياسة العامة التي يجب أن يسير عليها الإنسان، كما ينبغي أن تتحرك بها الدول في خططها التنموية في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وذلك عند استقرارها، وأمنها من الخوف...ومن هنا ندرك سراً من أسرار ورود هذه الآيات في سورة البقرة التي هي أول السور نزولاً في المرحلة المدنية: مرحلة البناء والتنمية والتعمير للدولة الإسلامية الناشئة في العصر النبوي الراشد، ولذا قال الطبري في تفسير آيات سورة البقرة: "وذلك الخليفة هو آدمُ ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه"[3]، ولذا أيضاً كانت هذه الآيات من سورة البقرة أصلاً في نصب إمامٍ وخليفةٍ يسمع له ويطاع، لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة كما يقول القرطبي[4].

المبحث الثاني: معنى الاستخلاف:

هذا التعبير: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ يستدعي معرفة معناه، إذ قد يتوهم المتوهم أن كلمة خليفة هنا وردت بالمعنى المتداول لها وهو: الذي يخلف غيره ويتولى زمام الأمور من بعده، ومن ثم يستبد بالحكم دونه في الوقت الذي يتخلى الأول عن كل شيء له، وليس هذا صحيحاً على إطلاقه هاهنا لأن الله - تعالى ذكره- حي قيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يعزب عنه مثقال ذرةٍ في السموات ولا في الأرض، لا يحتاج إلى نصيرٍ ولا إلى ظهير، فهل يحتاج سبحانه إلى خليفةٍ بهذا المعنى؟ كلا...كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء : 111]، وقال: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ

شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان : 2]، وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾[سبأ:22]، ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[سبأ : 27]وهذه الآيات وغيرها مما جاء على منوالها توضح بجلاء أن الله تعالى ليس له شريك، ولا ولي من الذل، ولا ظهير، ولا يمكن أن يكون معنى الاستخلاف هنا أن يكون الإنسان خليفة لربه في القيام على أمر الأرض في حين يتخلى الله عنها... ولذا لم يقل الله تعالى عندما أخبر الملائكة بذلك: إني جاعل في الأرض خليفة عني بل قال خليفة فقط، وعلى هذا لزم تحرير معنى قوله تعالى ((خليفة)) هنا، فقد ورد فيه عند المفسرين المعاني التالية:

الأول: المراد بالخليفة هو "خليفة الله في أرضه في تنفيذ أوامره"[5]: وعبارة خليفة الله في أرضه التي استخدمها الشنقيطي هنا فيها تسامح، وقد توهم معنى غير صحيح وهو أن الخليفة له الحق أن يفعل ما يحلو له فيما استخلف عليه، ولكنه بيَّن مراده منها بأن الخليفة هو الذي يقوم بتنفيذ أوامر من جعله كذلك، وينبغي عدم استخدام العبارات الموهمة للمعاني الخاطئة، وقد قال القرطبي: "والخلف هو التالي للمتقدم"[6]، واستشهد لذلك بما ورد عن أبي بكر- رضي الله عنه- أنه قيل له: يا خليفة الله؟ فقال: لست بخليفة الله، ولكني خليفة رسول الله - صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم- وأنا راضٍ بذلك"[7].

ومما يدل دلالة واضحة على أن مفهوم الخليفة هنا ليس خليفة الله في الأرض بالمعنى الموهم، بل المراد المستخلَف على الأرض المؤتمن على تبعات الاستخلاف تشريفاً وتكليفاً، تكريماً وابتلاء هذا النص القرآني الذي يشكّل الرؤية الحقيقية لمدلول كلمة خلافة من خلال ضرب المثل بنوعٍ واحدٍ من أنواع المخلوقات المسخرة لخدمة الإنسان، وهو المال إذ يقول الله تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد:7] "أمر تبارك وتعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار، وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه أي مما هو معكم على سبيل العارية؛ فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم"[8]، وقال البيضاوي: ((مستخلفين فيه)) من الأموال التي جعلكم الله خلفاء في التصرف فيها فهي في الحقيقة له لا لكم، أو التي استخلفكم عمن قبلكم في تملكها والتصرف فيها[9].

الثاني: وقيل سمى الله آدم عليه السلام خليفةً؛ لأنه صار خلفاً من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبله، وعليه فالخليفة فعيلة بمعنى فاعل[10]، ويوافق ذلك المعنى اللغوي لكلمة خليفة، إذ الخَليفةُ لغة -كما في كتاب العين- : من استُخْلِفَ مكان من قبله، ويقوم مقامه، والجن كانت عُمَّارَ الدنيا فجعل الله آدم وذُريته خليفةً منهم يعمرونها، وذلك قوله - عز اسمه - ﴿إني جاعلٌ في الأرض خَليفةً﴾، والخالِفةُ: الأمة الباقيةُ بعد السالفة[11]والتاء فيه للمبالغة لا للتأنيث، واستُخْلِفَ فلاناً من فلان جعله مكانه، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ

وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : 142]، وخَلَفْتُه أيضاً إذا جئت بعده، والخَلِيفةُ الذي يُسْتخْلَفُ ممن قبله، والجمع خلائف جاؤوا به على الأصل مثل كريمةٍ وكرائمَ، وهو الخَلِيفُ والجمع خُلَفاء[12].

الثالث: وقيل لأنه إذا مات يخلفه من بعده، وعليه فهو من فعيلة بمعنى مفعول[13]، كسقيفة بمعنى مسقوفة، وذبيحة بمعنى مذبوحة، وقتيلة بمعنى مقتولة:

وعلى هذين المعنيين الأخيرين فإن الخليفة الفعيلة من قولك: خلف فلان فلانا في هذا الأمر إذا قام مقامه فيه بعده كما قال جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: 14] يعني بذلك أنه أبدلكم في الأرض منهم فجعلكم خلفاء بعدهم، ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم: خليفة لأنه خلف الذي كان قبله فقام بالأمر مقامه[14]، فآدم وبنوه خلفوا من قبلهم، وهم يخلف بعضهم بعضاً، فاجتمع فيهم اسم الفاعل، واسم المفعول .

فاتضح مما سبق معنى كلمة (خليفة) الواردة في الآية، فإما أن يكون المراد من الخليفة هنا المعنى المجازي وهو الذي يتولى عملاً يريده المستخلف مثل الوكيل والوصي أي جاعلٌ في الأرض مدبراً يعمل ما نريده في الأرض فهو استعارة أو مجاز مرسل، فالإنسان هو الموجود الوحيد الذي استطاع بما أودع الله في خلقته أن يتصرف في مخلوقات الأرض بوجوهٍ عظيمة لا تنتهي خلاف غيره من الحيوان..وإنما امتاز الإنسان بذلك لإعطائه حرية الإرادة والاختيار كالجن في تنفيذ أوامر الله تعالى أو تركها، وإلا فالملائكة هي المقسوم بها في قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: 5]، وقوله تعالى: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾، هي الملائكة يرسلها الله في شؤون وأمور مختلفة، ولذا عبر عنها بالمقسمات، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾[النازعات:5]، فمنهم من يرسل لتسخير المطر والريح، ومنهم من يرسل لكتابة الأعمال، ومنهم من يرسل لقبض الأرواح، ومنهم من يرسل لإهلاك الأمم[15]، وبين القشيري أن المدبرات هنا: "الملائكة تنزل بالحرام والحلال، ويقال: جبريل بالوحي، وميكائيل بالقَطْرِ والنبات، وإسرافيل بالصُّور، ومَلَكُ الموت يَقْبِضِ الأرواح عليهم السلام"[16]، ونقل ابن عادل الإجماع على تفسيرها بذلك، كما نقل وجهاً ضعيفاً بأن المراد الكواكب[17]؛ فالملائكة ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (26) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾[الأنبياء:26 ، 27]، أما الإنسان فقد أعطي الإرادة والاختيار ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[الإنسان: 3].

وإما أن يراد من الخليفة معناه الحقيقي إذا صح أن الأرض كانت معمورة من قبل بطائفة وهم الجن على قول، وقيل مخلوقات يسمون الجن والبن بحاء مهملة مكسورة ونون في الأول وبموحدة مكسورة ونون في الثاني، وقيل اسمهم الطَم والرَم بفتح أولهما، وقيل التيتان ولعل هذا من الأوهام والخرافات الفارسية أو اليونانية[18]، ولذا ففي قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ [الأنعام: 133]"الأقرب أن المراد به الإهلاك، ويحتمل الإماتة أيضاً، ويحتمل أن لا يبلغهم مبلغ التكليف، وأما قوله ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم﴾ يعني من بعد إذهابكم؛ لأن الاستخلاف لا يكون إلا على طريق البدل من فائت، وأما قوله ﴿مَا يَشَاء﴾ فالمراد منه خلق ثالث ورابع، واختلفوا فقال

بعضهم: خلقاً آخر من أمثال الجن والإنس يكونون أطوع، - وقيل- : بل المراد أنه قادر على أن يخلق خلقاً ثالثاً مخالفاً للجن والإنس"[19].

وحقق بعض المفسرين أن القول بوجود خلق قبل الإنسان مستخلف في الأرض ينافيه سياق الآية؛ فإن تعقيب ذكر خلق الأرض ثم السماوات في قوله ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة : 29]بذكر إرادته تعالى جعل الخليفة في الآية بعدها دليل على أن جعل الخليفة كان أول الأحوال على الأرض بعد خلقها؛ فالخليفة هنا الذي يخلف صاحب الشيء في التصرف في مملوكاته بإذنه، وهو هنا آدم عليه السلام وبنوه، وخلافتهم قيامهم بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض، ومما يشمله هذا التصرف تصرف آدم بسن النظام لأهله، وأهاليهم على حسب وفرة عددهم، واتساع تصرفاتهم. فكانت الآية من هذا الوجه إيماء إلى حاجة البشر إلى إقامة خليفة لتنفيذ الفصل بين الناس في منازعاتهم؛ إذ لا يستقيم نظامٌ يجمع البشر بدون ذلك[20].

ومما جاء من الآيات دالاً على مفهوم "تداول الخلافة" والتعاقب عليها، قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [يونس:14]، ومثله قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [مريم: 59]، ومثله قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[الأعراف:69]، ومثله قوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾[الأعراف:74] فهذه الآيات كلها تشير إلى معنى البعدية الدال على مفهوم التعاقب، وكذلك قوله ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 165]، وقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: 62].

فهذه الشواهد المبينة من الوحي تكشف الدلالة المجملة في قوله تعالى﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، وأن المراد تداول الخلافة والتعاقب عليها بين جنس الآدميين، لا الخلافة عن الله سبحانه وتعالى، بمعنى أن يترك الله خلقه في الأرض، ويجعل أمرهم لآدم عليه السلام وبنيه -تعالى الله عن ذلك- .

من هو الخليفة المراد هنا على وجه التحديد؟:

المراد بالخليفة آدم عليه السلام وبنوه من بعده، وليس آدم عليه السلام وحده؛ لسببين:

1) لأن كلمة ((خليفة)) مفردٌ أريد به الجمع أي خلائف وهو اختيار ابن كثير، والمفرد إن كان اسم جنسٍ يكثر في كلام العرب إطلاقه مراداً به الجمع كقوله -تعالى- : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر : 54] ، يعني وأنهار بدليل قوله: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ... ﴾[محمد : 15]، وكقوله ﴿واجعلنا للمتقين إماما﴾ [الفرقان:74] أي أئمة[21].

2) لقوله -تعالى- في آية الاستخلاف في سورة البقرة ﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾، ومعلوم أن آدم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- ليس ممن يفسد فيها ولا ممن يسفك الدماء فتبين أن الله أخبرهم أن من ذريته من يفعل ذلك، ويبين ذلك الآيات التي تنص على استخلاف الأمم كقوله ﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض﴾ [فاطر:39]، وقوله ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ [الأنعام:165]، وقوله ﴿ويجعلكم خلفاء﴾[النمل:62]، ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة

في الأرض يخلفون﴾[الزخرف:60]، وقال: ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾[الأعراف:169][22].

هل يجوز إطلاق مصطلح (خليفة الله) على الإنسان؟: سبقت الإشارة إلى ذلك آنفاً، ويزيد الباحث ذلك إيضاحاً[23] فيقول: عندما يطلق أهل العلم هذا المصطلح فهم: إما أن يعنوا به أن الله تعالى استخلف الحاكم على أرضٍ خلفاً لمن قبله، ويخلفه من بعده مع التزامه بمحض الامتثال لأوامر الله تعالى، والقيام بتبعات الالتزام بكتابه أو الاقتداء برسوله، لا أن الله يحتاج إلى من يخلفه في خلقه - تعالى الله عن ذلك- ، وهذا كما قال تعالى﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص : 26]، وعلى هذا حمل أحاديث يظهر صحتها مثل ما جاء عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم- : ((...إذا رأيتموه فبايعوه ولو حبوا على الثلج فإنه خليفة الله...)) الحديث[24]، ومثل حديث حذيفة: ((فإن رأيت يومئذ خليفة الله في الأرض فالزمه))[25]، وقد ورد عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أنه قال: ((ولينا أبو بكر - رضي الله عنه- خير خليفة الله - عز وجل- أرحمه بنا، وأحناه علينا))[26]، وعن عبد الله بن نعيم المعافري قال: سمعت المشيخة يقولون: من أمر بمعروف ونهى عن منكر فهو خليفة الله في الأرض، وخليفة كتابه، وخليفة رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- [27]، ومن ذلك تسمية المؤذن خليفة الله تعالى[28]. وبناء على ذلك فإن كان هذا الخليفة لا يقوم بأمر الله تعالى، ولا يتابع رسوله- صلى الله عليه وآله وسلم- فلا يصح إطلاق هذا الوصف عليه باعتبار مخالفته لمقتضاه، فإطلاق هذا الوصف عليه كإطلاق وصف الأمين على الخائن...وذلك منكر من القول وزور.

وإما أن يعنوا به أن الجنس الإنساني يخلف بعضه بعضاً في عمارة الأرض على مراد الله تعالى، وأفراد هذا الجنس مختبرون في ذلك كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[يونس : 14].

أما إن أريد بمصطلح خليفة الله الوكالة عن الله تعالى بحيث لا يبقى لله على ذلك الفرد مراقبة فهذا معنى باطل... فإن الله تعالى ليس بغائب حتى يقوم غيره مقامه جل وعلا، كما قال سبحانه ﴿وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[يونس:61]، وقال: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:7][29]، بل يكفي في الرد على هذا المعنى الفاسد أن التدبير التشريعي العام لأمور الناس وأقضيتهم وحياتهم الاجتماعية والسياسية بيد الله تعالى كما قال تعالى: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف:54].

وعليه يحمل قول من منع من إطلاق هذا المصطلح لاشتماله على هذا الإيهام، ومنهم ابن تيمية حيث قال: "والمقصود هنا أن الله لا يخلفه غيره فإن الخلافة إنما تكون عن غائب، وهو سبحانه شهيدٌ مدبرٌ لخلقه، لا يحتاج في تدبيرهم إلى غيره وهو سبحانه خالق الأسباب والمسببات جميعاً، بل هو سبحانه يخلف عبده المؤمن إذا غاب عن أهله"[30]، يعني في قول النبي- صلى الله عليه وآله وسلم-

((اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ))[31]، وقوله ((وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ))[32].

الفصل الثاني: أهداف الخلافة الإنسانية:

المبحث الأول: مجمل أهداف الخلافة الإنسانية:

يمكن تلخيص أهداف الخلافة الإنسانية في كلمةٍ واحدةٍ هي: القيام بأمر الله -تعالى- . والقيام بأمره - تعالى- يتفرع إلى أمرين: القيام بأمره من خلال عبادته المحضة، والقيام بأمره من خلال عمارة الأرض؛ إذ يجب على المستخلَف أن يقوم بأمر من استخلفه، والمستخلِف هو الله -تعالى- والمستخلَف هو الإنسان، وقد بين الله -تعالى- في القرآن الكريم الهدف من الاستخلاف في مواضع متعددة، وأبرزها نصاً موضعان:

الأول: موضع سورة البقرة في قوله -تعالى- : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:30)، والثاني في موضع سورة هود - عليه السلام- في قوله -تعالى- على لسان صالح - عليه السلام- في قوله -تعالى- : ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾(هود:61)، وفي هاتين الآيتين جمع الله بين أهداف الاستخلاف، وحيثيات هذه الأهداف، فأجمل أهداف الاستخلاف في هدفين:

الهدف الأول: معرفة الله حق معرفته، وعبادته حق العبادة: وقد ظهر ذلك في سورة البقرة على لسان الملائكة في قولهم ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾، ففهمت الملائكة أن غاية الاستخلاف التسبيح والتقديس الذي يعني العبودية التامة لله - جل في علاه- ، فغير المسبحين لله لا يستحقون هذا الاستخلاف كما فهمت الملائكة، ولذا كان قول الملائكة ((أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ)) سؤالاً منهم على وجه الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك، فكأنهم قالوا:"يا رب خبرنا"، مسألة استخبار منهم لله، لا على وجه الإنكار كما اختاره ابن جرير(33)، وقال فيه الرازي: "فالحاصل أن قوله: { أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا } كأنه تعجب من كمال علم الله تعالى وإحاطة حكمته بما خفي على كل العقلاء"(34).

وهذا ما أكدته الرسل لقومهم ومنهم صالح عليه السلام في آية سورة هود حيث قال: ﴿اعبدوا الله﴾، وبين سبحانه في كلام صالح عليه السلام سبب وجوب العبودية على الإنسان المستخلف بأنه اجتمع فيه أمران يلزمانه بالعبودية:

1) عدم وجود إله غير الله يرزق الخلق من السماء والأرض؛ ولذا قال عقب الأمر بالعبودية: ﴿ما لكم من إله غيره﴾، ووضح ذلك في سورة فاطر فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر:3].

2) كون الله خلق البشر، وأنشأهم من الأرض ﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ [هود:61]، فكمال صفاته -سبحانه- هي التي أوجدت هذا المخلوق البشري، فوجب أن يكون البشر أول المسلمين كما قال الله - تعالى- على لسان نبيه - صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم- :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : 162 ، 163]، ولذا قال الرازي: " قد ثبت أن الصفات التي هي كمالات حقيقية ليست إلا القدرة والعلم، فعبّر – سبحانه- عن كمال القدرة بقوله ﴿للَّهِ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض﴾ [البقرة:284] مُلْكا ومَلِكاً، وعبر عن كمال العلم المحيط بالكليات والجزئيات بقوله ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ الله﴾ [البقرة:284]، وإذا حصل كمال القدرة والعلم كان كل من في السموات والأرض عبيداً مربوبين وجدوا بتخليقه وتكوينه، فيكون ذلك غاية الوعد للمطيعين، ونهاية الوعيد للمذنبين، فلهذا السبب ختم الله هذه السورة بهذه الآية(35)، وفي آيات الاستخلاف في سورة البقرة يذكر الرازي هذه الحكمة من الاستخلاف في تأملٍ بديع في قوله - تعالى- للملائكة: ((إني أعلم ما لا تعلمون)) فيبين أن الله تعالى كأنه يقول للائكته: "إنكم لما وصفتم أنفسكم بهذه المدائح فقد استعظمتم أنفسكم، فكأنكم أنتم بهذا الكلام في تسبيح أنفسكم، لا في تسبيحي، ولكن اصبروا حتى يظهر البشر فيتضرعون إلى الله بقولهم ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:44]، وبقوله﴿ والذى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى ﴾ [الشعراء:82]، وبقوله: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصالحين﴾ [النمل: 19]"(36).

الهدف الثاني: إعمار الأرض: بفعل النفس، ودعوة الغير إلى خير الدين والدنيا... وقد فهمت الملائكة أن هذا هو الهدف السامي الآخر من الاستخلاف وعبرت عن ذلك بقولها: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ فالملائكة عنت أن من لا يعرف قيمة الحياة، ولا يهتم بإعمارها بل يفسد فيها ويهدر قيمة الحياة التي منحه الله تعالى إياها لا يستحق أن يكون خليفة في الأرض، ووضح الله - تعالى- ذلك على لسان صالح - عليه السلام- حيث ذكر هذا الهدف الثاني للوجود الإنساني بعد عبادة الله تعالى فقال: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾، وقد قال بعض المفسرين في قوله –تعالى: ((إني جاعل في الأرض خليفة)) أي ساكناً وعامراً يسكنها ويعمرها(37)، وكما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾[النمل:62] أي "خلفاء فيها ، تتصرفون فيها كيف شئتم ، بالسكن وغيره، وراثة عمن كان قبلكم من الأمم ، قرناً بعد قرن، أو أراد بالخلافة الملك والتسلط"(38) أو كما قال أبو حيان: "خلفاء الأرض تملكونها وتتصرفون فيها"(39).

فالهدف الأول نفعٌ قاصر، والهدف الثاني نفعٌ متعدٍ، على أن الهدف الثاني تابع للأول...بل يمكن القول إنه نتيجةٌ من أهم نتائج تحقيق الهدف الأول بالشكل اللائق به، فإعمار الأرض يتحقق إذا عبد الإنسان ربه حق عبادته، ولا بد من التأكيد على ذلك في ضوء ما يشاهد من غلوٍ مدني يبرز "مركزية المدنية وغائية الحضارة"، وأحياناً على حساب الهدف الأول(40)، وقد قال الحسن البصري في قوله –تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت:33): هذا حبيب الله هذا ولي الله.. هذا صفوة الله..هذا خيرة الله.. هذا أحب أهل الأرض إلى

الله: أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، وقال: إنني من المسلمين... هذا خليفة الله(41).

وبناء على هذين الهدفين العظيمين قامت الحضارة الإسلامية على أدب الدين والدنيا، فأدب الدين ما أدى الفرض، وأدب الدنيا ما عمر الأرض، "وأعظم الأمور خطراً وقدراً، وأعمها نفعاً ورفداً ما استقام به الدين والدنيا، وانتظم به صلاح الآخرة والأولى، لأن باستقامة الدين تصح العبادة، وبصلاح الدنيا تتم السعادة كما يقول الفقيه المدقق أبو الحسن الماوردي(42)، وبناء على هذين الهدفين الجسيمين أيضاً ذكر بعض محققي العلماء أن الحق نوعان:

حقٌّ موجود: فالواجب معرفته، والصدق في الإخبار عنه، وضد ذلك الجهل والكذب،

وحقٌّ مقصود: وهو النافع للإنسان، فالواجب إرادته، والعمل به، وضد ذلك إرادة الباطل واتباعه(43).

المبحث الثاني: الواجب لتحقيق الهدفين العظيمين للاستخلاف:

يتلخص الواجب الإنساني لتحقيق هدفي الاستخلاف في سياسة الدين والدنيا بالحق (العدل والقسط) دون غلوٍ أو تقصيرٍ، دون إفراط أو تفريط ...دون شطط في جانب الوفاء أو في جانب الجفاء كما قال الخصمان لداود عليه السلام: ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾[ص:22]"وأصل مادة الشطط مجاوزة الحد ومنه أشط في السوم إذا جاوز الحد"(44)، والظاهر أن الشطط كلمة تستعمل للجانبين: البعد غلواً في الفعل والبعد غلواً في الترك، ولذا بين الله تعالى وظيفة الخليفة من هذه الناحية فقال ﴿يا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:26] ف "أمر نبيه داود- عليه السلام- فيه بالحكم بين الناس بالحق، ونهاه فيه عن اتباع الهوى، وأن اتباع الهوى علة للضلال عن سبيل الله؛ لأن الفاء في قوله ﴿فيضلك عن سبيل الله﴾ تدل على العلية، وقد تقرر في الأصول في مسلك الإيماء والتنبيه أن الفاء من حروف التعليل كقوله: سهى فسجد، وسرق فقطعت يده، وأتبع ذلك بالتهديد لمن اتبع الهوى فأضله ربنا عن سبيل الله في قوله -تعالى- بعده ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (ص:26)، ومعلومٌ أن نبي الله داود- عليه السلام- لا يحكم بغير الحق، ولا يتبع الهوى فيضله عن سبيل الله، ولكن الله تعالى يأمر أنبياءه - عليهم الصلاة والسلام- وينهاهم ليشرع لأممهم"(45).

العلاقة بين هدفي الاستخلاف والحكم بين الناس بالحق:

على الرغم من أن الحكم بالحق وسيلةٌ لتحقيق الهدفين الكبيرين اللذين هما غاية وجود الخليفة في الأرض إلا أن القرآن الكريم ينبهنا في هذه الآية أن هذه الوسيلة قد عظمت حتى صارت كأنها هي الهدف والغاية لشدة أهميتها، ولذا ربطت الآية بين وجود الخليفة في الأرض ﴿إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ وبين الحكم بالحق ﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾ ربطاً عميقاً دقيقاً ينبه إلى أهمية الحكم بالحق، وقد بين الله تعالى سبيل الحكم بالحق ومنهاجه الهادي حتى لا يتخبط الناس ويحتارون في المناهج والدساتير التي يعتمدونها للوصول إلى الحكم بالحق فقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ

بالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء:105]، ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة:48]...

كما نلحظ أن آيات الاستخلاف تنبهنا إلى أصلٍ أساسي في الحكم بالعدل وهو الشورى، ولذا قال الشوكاني في سر الحوار الذي دار بين الكريم القهار، وبين الملائكة في خلافة آدم - عليه السلام- : "قيل: خاطب الله الملائكة بهذا الخطاب؛ لا للمشورة، ولكن لاستخراج ما عندهم، وقيل: خاطبهم بذلك لأجل أن يصدر منهم ذلك السؤال، فيجابون بذلك الجواب، وقيل: لأجل تعليم عباده مشروعية المشاورة لهم"(46).

ركائز إعمار الإنسان المستخلف للأرض:

إعمار الأرض يقوم على ركيزتين وهما اللتان ذكرهما الله –تعالى- في أثناء الكلام عن الاستخلاف مما سبق إيراده، وهاتان الركيزتان هما:

الركيزة الأولى: العدل الذاتي والسياسي العام؛ فقد قال الله –تعالى- لداود - عليه السلام- وهو يذكره بأنه جعله خليفة:﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص:26].

الركيزة الثانية: الإحسان للنفس وللناس، ويفهم هذا من قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الإنعام:165]، وبهاتين الركيزتين تنمو الأرض، وتعمر الحضارة، وتبنى الدول.

وقد جمع الله هاتين الركيزتين في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:90]، وقد قرر ذلك ربعي بن عامر - رضي الله عنه- أحسن تقرير عندما سأله رستم قائد جيش كسرى عن سبب مجيئ المسلمين من أرضهم وخروجهم إلى العالمين فقال: (الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام)(47).

المبحث الثالث: التهيئة للقيام بواجب الخلافة:

حتى يقوم الإنسان بواجبات الخلافة فقد هيأ الله له جميع ما يلزمه للقيام بذلك على أكمل وجه، والتهيئة التي أُعطيها الإنسان نوعان:

النوع الأول: التهيئة الذاتية: وتتجلى في عدة أمور:

1) أعطاه الله هبة الحياة: ولذا قال الرازي في بيان حصر العبادة في الله تعالى: "العبادة عبارة عن نهاية التعظيم، وهي لا تليق إلا بمن صدر عنه غاية الإنعام، وأعظم وجوه الإنعام الحياة التي تفيد المكنة من الانتفاع، وخلق المنتفع به فالمرتبة الأولى - وهي الحياة التي تفيد المكنة من الانتفاع- وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾[مريم : 9]، وقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[البقرة : 28]الآية"(48).

2) خلقه في أحسن تقويم: كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[التين:4] أي في أعدل خلقٍ، وأحسن صورة(49).

3) تكميله بالعلم الذاتي الضروري ليتعامل مع الأشياء والمخلوقات حوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31].

4) جعله مستعداً للعلم الكسبي ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾[الرحمن:3- 4] "يعني جعله مخبراً مميزاً حتى يميز الإنسان من جميع الحيوان، ويقال علمه البيان يعني الكلام، ويقال يعني الفصاحة، ويقال الفهم"(50)، ورأس العلم: البيان أي الإفصاح عما في النفس، "ولم يقل وعلمه البيان؛ لأنه لو عطفه عليه لكان مغايراً له، أما إذا ترك الحرف العاطف صار قوله ﴿عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾كالتفسير لقوله: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ كأنه إنما يكون خالقاً للإنسان إذا علمه البيان...ولا شك أن اللسان هو الآلة في إعطاء المعارف، فوجب أن يكون أشرف الأعضاء"(51)، وفي قوله: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ إشارة إلى تقدير خلق جسمه الخاص، و﴿عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾ إشارة إلى تميزه بالعلم عن غيره"(52)ف"خلق الإنسان وتعليمه البيان من أعظم آيات الله الباهرة كما أشار -تعالى- لذلك بقوله في أول النحل: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[النحل:4]"(53).

5) أعطاه أدوات اكتساب العلم: وقد ذكر الله -تعالى- الأدوات الأساسية في اكتساب العلم فقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:78)، وهذه الأدوات الثلاث هي "التي تعلمون بها وتدركون...أي وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهي، والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه، والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته"كما يقول القرطبي(54)، وعبر الزمخشري عن هذه الحقيقة في تفسير الآية بعبارة جميلة فقال:"وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه، واجتلاب العلم والعمل به: من شكر المنعم، وعبادته، والقيام بحقوقه، والترقي إلى ما يسعدكم"(55)...وبهذه الأدوات الكبرى التي تتفرع عنها كل الأدوات العلمية المعروفة الآن لأهل الأرض تعلم القوانين الإلهية الكونية التي جعل الله تعالى الكون يسير عليها، وتستخدم هذه الآلات التي ركبها الله في الإنسان(السمع والأبصار والأفئدة) لمعرفة هذه القوانين الإلهية عن طريق "المشاهدة والنظر والتأمل، واستخلاص النتائج في ضوء ذلك للتعرف على القواعد التي تحكم موجودات هذا العالم وحوادثه المادية"(56)، بل يعبر الآلوسي عما هو أوسع من مجرد العلم الكسبي فيقول: "والمعنى جعل لكم هذه الأشياء آلاتٍ تحصلون بها العلم والمعرفة بأن تحسوا بمشاعركم جزئيات الأشياء، وتدركوها بأفئدتكم، وتنتبهوا لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرير الإحساس، فيحصل لكم علوم بديهية تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكسبية"(57).

النوع الثاني: التهيئة البيئية:

وتم ذلك بثلاثة أمور:

1) ببيان سر خلقه للمخلوقات قبله وحواليه كالملائكة والجن حتى تتعامل معه وفق ما يرضي الله تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾[البقرة:30]، فالملائكة قبلوا، والجن أبوا واستكبروا.

2) بإسجاد الملائكة له وهم أكرم المخلوقات قبله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾[الأعراف:11]، وبذلك تعرف مكانته.

3) بتسخير الكون لخدمة الإنسان، وقد ذكر الله ذلك في آيات كثيرة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ﴾[الأعراف:10]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[النحل : 13]، فذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة امتنانه على خلقه بما سخر لهم مما خلق في الأرض، منبهاً على أنَّ خَلْقَه لما خَلَقَ لهم في الأرض مع ما فيه من النعم العظام فيه الدلالة الواضحة لمن يذكر ويتعظ على وحدانيته واستحقاقه لأن يعبد وحده، وكرر هذا المعنى في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً..﴾ [البقرة:29]الآية، وقوله:﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ... ﴾[الجاثية/13]الآية، وقوله:﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن10:- 13]، وقوله:﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك:15](58)، وقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى (53)كُلُواْ وَارْعَوْاْ أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى﴾ [طه:53- 54] فـ"قد بين جل وعلا في هاتين الآيتين أربع آيات من آياته الكبرى الدالة على أنه المعبود وحده، ومع كونها من آيات على كمال قدرته واستحقاقه العبادة وحده دون غيره فهي من النعم العظمى على بني آدم:

الأولى: فرشه الأرض على هذا النمط العجيب.

الثانية: جعله فيها سُبلاً يمر معها بنو آدم ويتوصلون بها من قطر إلى قطر.

الثالثة: إنزاله الماء من السماء على هذا النمط العجيب.

الرابعة: إخراجه أنواع النبات من الأرض"(59).

وقد جعل الرازي النعمة الثانية على الإنسان بعد نعمة الحياة "خلق المنتفع به - وإليها الإشارة بقوله: ﴿و الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ [البقرة: 29]، ولما كانت المصالح الحاصلة في هذا العالم السفلي إنما تنتظم بالحركات الفلكية على سبيل إجراء العادة لا جرم أتبعه بقوله: ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم﴾ [البقرة:29] فثبت بما ذكرنا أن كل النعم حاصل بإيجاد الله تعالى فوجب أن لا تحسن العبادة إلا لله - تعالى- "(60).

وكل ذلك نعمةٌ من الله على ابن آدم ليقوم بواجبات الاستخلاف، ولذا أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ قال: سخر لكم ما في الأرض جميعاً كرامةً من الله ونعمةً لابن آدم متاعاً وبلغة ومنفعة إلى أجل"(61).

وهذا الموضع من سورة البقرة من أبرز المواضع التي ربط فيها قضية الاستخلاف بالتهيئة البيئية للإنسان؛ إذ عطف قضية الاستخلاف في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ على قوله - تعالى- قبله ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾، وقد ذكر سر هذا العطف ابن جرير- رحمه الله تعالى- في تدبرٍ عجيبٍ فقال: "فكان مما عدّد من نعمه عليهم أنه خلق لهم ما في الأرض جميعًا، وسخّر لهم ما في السموات من شمسها وقمرها ونجومها، وغير ذلك من منافعها التي جعلها لهم ولسائر بني آدم معهم منافع، فكان في قوله-

تعالى ذكره- ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[البقرة:28] معنى: اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم؛ إذ خلقتكم ولم تكونوا شيئًا، وخلقت لكم ما في الأرض جميعًا، وسويت لكم ما في السماء، ثم عطف بقوله:﴿ وإذ قال ربُّك للملائكة﴾ على المعنى المقتضَى بقوله:﴿ كيف تكفرون بالله﴾، إذ كان مقتضيًا ما وصفتُ من قوله: اذكروا نعمتي إذ فعلت بكم وفعلتُ، واذكروا فعلي بأبيكم آدم إذ قلتُ للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفةً"(62).

وقد ذكر الله التهيئة البيئية والذاتية في مكان واحد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ(10) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الأعراف:10].

التهيئة البيئية تقتضي النماء والتصرف والإعمار:

ما سبق من ذكر التهيئة البيئية يقتضي أن يستغل الإنسان تلك الخيرات المسخرة له في الأرض والسماء، ويكتشف قوانينها، ويعمل على زيادة الانتفاع بها ما أمكنه؛ ولذا ميز الله تعالى الإنسان بالعلم، وجعله دليلاً على استحقاقه للتكريم. وهذا الاستغلال المطلوب يشمل كل ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم من خيرات الأرض، والبحار، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، وسورة النحل على سبيل المثال تزخر بمثل ذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ(6) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (7) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ(8) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14)...﴾[النحل:6- 14] والقرآن زاخرٌ بهذه الحقائق، وطلب الله من الناس صراحة السير في الأرض، واكتشاف قوانينها ليتمكنوا بصورةٍ أكبر من الاستفادة مما سخر الله مما حولهم فقال:﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[الملك:15]، وفي المقابل يعجب المرء من تخلف المسلمين في الاستفادة مما يحثهم القرآن عليه حثاً ليستطيعوا القيام بواجبات الخلافة.

التهيئة العامة تقتضي الفرح بالدنيا وإعمارها لكن ضمن حدود طاعة الله تعالى:

وإذا كان الله -تعالى- قد زين لنا الدنيا وحببها إلينا، وجب ألا نعرض عنها، وأن نأخذ ما زينه لنا بحقه، فنعمره ولكن في طاعته، ونثمره ولكن تحت لواء توجيهاته، لا أن نعرض عنه ونهجره فعلَ المتزهدين بغير علم. وقد ذكر الله ذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى:﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ

وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران:14]، ولذا قال عمر - رضي الله عنه- : ((اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا، اللهم إني أسألك أن أنفقه في حقه))[63]، ومعنى كلام عمر- رضي الله عنه- يقرره ابن حجر فيقول: "وفي هذا الأثر إشارة إلى أن فاعل التزيين المذكور في الآية هو الله، وأن تزيين ذلك بمعنى تحسينه في قلوب بني آدم، وأنهم جبلوا على ذلك، لكن منهم من استمر على ما طبع عليه من ذلك، وانهمك فيه، وهو المذموم، ومنهم من راعى فيه الأمر والنهي، ووقف عند ما حد له من ذلك، وذلك بمجاهدة نفسه بتوفيق الله تعالى له، فهذا لم يتناوله الذم، ومنهم من ارتقى عن ذلك فزهد فيه بعد أن قدر عليه، وأعرض عنه مع إقباله عليه، وتمكنه منه فهذا هو المقام المحمود"[64]، وفقهَ أرباب التربية الإيمانية ذلك فصوبوا الحيارى في أمر الدنيا الظانين أن الزهد فيها يقتضي الإعراض عنها بمرة فعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قلت لأبي حازم يوماً: إني لأجد شيئاً يحزنني. قال: وما هو يا ابن أخي؟ قلت: حبي الدنيا. قال لي: اعلم يا ابن أخي أن هذا لِشَيءٍ – أي لا يُحزِن- : ما أعاتب نفسي على بغض شيءٍ حببه الله إلي؛ لأن الله –تعالى- قد حبب هذه الدنيا إلينا، ولكن لتكن معاتبتنا أنفسنا في غير هذا: أن لا يدعونا حبها إلى أن نأخذ شيئاً من شيءٍ يكرهه الله، ولا نمنع شيئاً من شيءٍ أحبه الله، فإذا نحن فعلنا ذلك لم يضرنا حبنا إياها[65].

الأثر المترتب على تسخير الكون للإنسان:

والأثر المترتب على تسخير الله تعالى هذا الكون لخدمة الإنسان هو قيام الإنسان بالواجبات المترتبة على هذا الاستخلاف:اتباعاً لأمر الله تعالى، وقياماً ببرنامج خلقه، وتركاً لمعصيته، ولذا استنبط الرازي من قوله –تعالى- ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ﴾[ص:18] كنعمة زائدة وهبها الله –تعالى- لعبده داود - عليه السلام- حتمية زور نسبة قصة أوريا التي يرويها بعض بني إسرائيل على دواد - عليه السلام- فقال: "أفترى أنه سخرت له الجبال ليتخذها وسيلة إلى القتل والفجور"(66)، وكنموذج لبيان الغاية من الاستخلاف يمكن أن نأخذ جزئية المال المسخر لنفع الإنسان الذي صار خليفة مستأمناً عليه؛ فعن أبي أمامة - رضي الله تعالى عنه- عن النبي - صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم- قال : ((لو أن لابن آدم واديان لتمنى وادياً ثالثاً، وما جعل المال إلا لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة))[67].

تفاوت درجات الاستخلاف بين بني آدم عليه السلام:

فقد بين الله –تعالى- في سورة الأنعام أنه جعل جميع بني الإنسان خلائف الأرض كما قال – تعالى- : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾[الإنعام:165]، ولكنه - سبحانه وتعالى- جعل الملكات الوهبية والكسبية متفاوتة فيما بينهم فقال تتمة للقانون الإلهي السابق﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[الإنعام:165]، ففضل بعضهم في المال، وبعضهم في الجاه، وبعضهم في العلم، وبعضهم في القوة، وبعضهم في الجمال، وجعل كل ذلك درجات متفاوتة تفاوتاً عظيماً يشهد له واقع الحال بما يغني عن زيادة المقال..وكل مختبَرٌ في

مدى قيامه بواجبات الاستخلاف بحسب قدرته وطاقته كما قال تعالى:﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾، كما قال ابن كثير: "أي ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به... ليختبر الغني في غناه، ويسأله عن شكره، والفقير في فقره، ويسأله عن صبره"[68]، وقد روى مسلم من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه- قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم- : ((إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون))[69]، وجعل الدنيا حلوة خضرة لأمرين: أحدهما حسنها للنفوس ونضارتها ولذتها كالفاكهة الخضراء الحلوة؛ فإن النفوس تطلبها طلباً حثيثاً فكذا الدنيا، والثاني: سرعة فنائها كالشيء الأخضر في هذين الوصفين، ومعنى مستخلفكم فيها جاعلكم خلفاء من القرون الذين قبلكم، فينظر هل تعملون بطاعته أم بمعصيته وشهواتكم[70].

وختم الآية بأجمل ختام مبيناً أن كلاً سيحاسب على نتائج هذا الابتلاء ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الإنعام:165] ليرهب الناس من معصيته وغضبه لو فشلوا في الاختبار، ويرغب في طاعته ورحمته ليجتهدوا في طلب النجاح في الاختبار، وبين النبي - صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم- ضرورة استحضار جانبي الرغبة والرهبة فيما رواه مسلم فقال: ((لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد))، وزاد أحمد: ((خلق الله مائة رحمة، فوضع رحمة واحدة بين خلقه يتراحمون بها، وعند الله تسعة وتسعون رحمة))[71] مع تأكيد تغليب جانب الرحمة حيث زاد اللام التأكيدية فيها، وهو الذي ذكره النبي - صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم- في قوله: ((لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي))[72].

المبحث الرابع: الصورة الكونية ومقامات الاستخلاف:

في آيات سورة ص ربط بين الاستخلاف وبين الحكمة من خلق السماء والأرض ليبين الحكمة من وجود الكون، وأنه لم يخلق عبثاً، ولا تُرِك هملاً، ولذا قال بعد آية الاستخلاف التي ذكر فيها - داود عليه السلام- : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ (29)﴾[ص:27- 29] أي: ما خلق الكون عبثاً ولهواً، بل "ليعمل فيهما بطاعتنا، وينتهى إلى أمرنا ونهينا. (ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا) يقول: أي ظَنُّ أنَّا خلقنا ذلك باطلاً ولعباً، ظنّ الذين كفروا بالله فلم يُوَحِّدُوه، ولم يعرفوا عظمته، وأنه لا ينبغي أن يَعْبَث، فيتيقنوا بذلك أنه لا يخلق شيئا باطلا"[73].

مقامات الاستخلاف توضح أسرار الحياة الإنسانية في التصور القرآني:

بحسب ما ورد في القرآن الكريم من تكرار كلمة الاستخلاف وما اشتق منها فقد ذكرت كلمة الاستخلاف في المقامات الأساسية الآتية:

1) مقام الوجود الإنساني: فقد وردت كلمة خليفة في سورة البقرة موضحة حقيقة الوجود الإنساني نشأة وهدفاً ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا

وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30]، فالاستخلاف بالمفهوم الإسلامي يصور حقيقة الوجود الإنساني .

2) مقام المَلَكات الوهبية والقدرات الكسبية: التي أعطاها الله لبني آدم عليه السلام وميز بعضهم فيها بزيادة في بعض وجوهها كما في سورة الأنعام ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[الأنعام:165]، والآية تفسر سراً آخر من أسرار الحياة وهو التنوع الإنساني في القدرات والملكات، وأكد في سورة يونس على اشتراك جميع البشر في صفة الاستخلاف بحيث يختبرون على القدر الذي أوتوه من صفات الاستخلاف ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:14].

3) مقام الأفعال والتصرفات الإنسانية وما يترتب عليها من مسؤولية: فالتصرفات الإنسانية من جميع البشر ينبغي أن تكون وفق الهدفين العظيمين للوجود الإنساني (عبادة الله وإعمار الحياة) وإلا حوسب الإنسان على التصرف الذي يصدر منه إذا خالف ذلك باعتبار ذلك كفراً منه بنعمة التشريف بالاستخلاف الإنساني، وابتعاداً عن واجبات التكليف ومسؤولياته، وقد أبانت ذلك سورة فاطر فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلا مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلا خَسَارًا﴾ [فاطر:39].

4) مقام الحكم والملك الإنساني على أفراد بني الإنسان: إذ سمى الله داود عليه السلام خليفة في سورة ص فقال سبحانه وتعالى ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص:26]، وخط له خطة الحكم الأساسية وهي الحكم بالحق، ومقام الملك أخطر عناصر التمايز الإنساني المكتسب .

5) مقام المال والموارد الاقتصادية: وهي أخطر عناصر التمايز الإنساني المكتسب بعد الملك حيث أوردت سورة الحديد ضرورة التعامل مع المال وفق ما وضعه المالك الحقيقي له وهو الله سبحانه وتعالى، وذلك في قول الله تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[الحديد:7].

ونلحظ التناسق العجيب والترتيب بين هذه المقامات جميعاً فمثلاً مقام الملك يأتي بعد مقام التصرفات الإنسانية لأنه أخص منها، ومقام المال والثروة الاقتصادية يأتي بعد مقام الملك باعتبار أنه يتلوه في الأهمية...وهكذا جاءت سورها مرتبة...فيا لعظمة القرآن المجيد...اللهم زدنا فهماً له، وتمجيداً له وبه .

وبفهم هذه المقامات الخمسة، وتطبيق ما يؤدي إليه هذا الفهم يتحقق التسبيح والتقديس لله تعالى، وتعمر الحياة بعيشة هنيئة طيبة مصونة الدماء، وبدون معرفة هذه المقامات التي توضح أسرار الحياة يصبح الإنسان ﴿ظلوماً جهولاً﴾[الأحزاب:73] ظلوماً مفسداً في الأرض، جهولاً لسر وجوده في الحياة، ويحدث ما تخوفت منه الملائكة من المخلوق الإنساني الظلوم الجهول ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا

وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[البقرة:30].

وهكذا يوضح القرآن الكريم أهم أسرار الحياة وبرامجها لكي ينجح الوجود الإنساني فيها بصورة مذهلة ورائعة تأخذ بلب المتدبر للقرآن الكريم .

الفصل الثالث: أهم معالم مبدأ الاستخلاف:

المبحث الأول: الاستخلاف تشريف وتكليف:

- فهو تشريف من الله تعالى حيث فضل الإنسان بهذا الاستخلاف على كثير من المخلوقات كما قال تعالى في سورة الإسراء ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[الإسراء:70].

- كما هو تكليف للقيام بتبعات الاستخلاف (العبودية وإعمار الأرض) ولذا ختم صالح عليه السلام هذا البيان الدقيق العجيب لموضوع الاستخلاف بقوله لقومه ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه﴾[هود:61] أي فاستغفروه عن التقصير في تبعات الاستخلاف، ثم توبوا إليه بالمبادرة إلى الأعمال المطلوبة منكم في العبودية الفردية أو في العبودية المتعدية التي تنفع الناس أو كما عبر ابن كثير - رحمه الله تعالى- : "{فَاسْتَغْفِرُوهُ} لسالف ذنوبكم {ثُمّ تُوبُوَاْ إِلَيْهِ} فيما تستقبلونه"(74)...(وبذلك يتم إعمار الأرض)،

- وحقيقة الاستخلاف تتضمن أخذ الميثاق والعهد على المستخلف أن يقوم بتبعات الاستخلاف كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة...﴾ [آل عمران:81] فقد قالوا في معناها: " أن الله أخذ العهد والميثاق على كل نبي أن يؤمن بمحمد- صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم- وينصره إن أدركه، وتضمن ذلك أخذ هذا الميثاق على أمم الأنبياء، واللام في قوله ﴿ لما آتيتكم﴾ لام التوطئة؛ لأن أخذ الميثاق في معنى الاستخلاف"(75).

المبحث الثاني: إمداد الإنسان المستخلف بالخصائص الضرورية:

والخصائص التي تم إمداد الإنسان بها نوعان: خصائص أصلية وخصائص تبعية:

وأهم الخصائص الأصلية ثلاثة أمور:

1) القوى الجسمية (المادية): التي تساعده على الاكتساب العلمي كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل:78].

2) القوى النفسية (الغضبية والشهوانية): وهي يمكن أن تقوده إلى الخير فيفلح، أو إلى الشر فيشقى كما قال -تعالى- : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى:14- 15]، وقال -سبحانه- : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[الشمس:7- 10].

3) القوى العقلية التي تنبثق عنها الإرادة: فقد قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف:29]، فجعل الله -تعالى- له حرية الاختيار بين الكفر والإيمان، ولكنه بين المسؤولية التي تترتب على هذا الاختيار، وتلك هي الإرادة، فإن اختار الكفر فهو ظالم لنفسه ولبني جنسه، وإن اختار الإيمان فلا يضيع الله تعالى أجره كما قال سبحانه مباشرة عقب هذا التخيير: ﴿ إِنَّا

أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا(29) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا﴾[الكهف:29- 30]، وذلك بعكس السموات والأرض مثلاً من المخلوقات فلا اختيار فقد قال تعالى لهما: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[فصلت:11].

وأهم الخصائص التبعية المترتبة على الخصائص الأصلية:

إمكانية الخطأ والصواب من الإنسان المستخلَف:

ولذا ذكر الله تعالى هذه المسألة في ثنايا الكلام على الاستخلاف في سورة البقرة، غير أنه يجب عليه الرجوع إلى الصواب حال الوقوع في الخطأ، والرجوع إلى الطاعة حال الوقوع في المعصية، وكان أبرز نموذج لذلك هو آدم عليه السلام: فقد ذكر الله تعالى تفضيله له، وجعله خليفة في الأرض، ثم بين أنه أخطأ في أكله من الشجرة التي نهي عنها، وقال ﴿وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾[طه:121- 122]، وبين أنه تفضل عليه في طريقة توبته فقال في آيات الاستخلاف في آية البقرة: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة:37] وكان هذا النموذج لبني آدم من بعد إذا وقعوا في الزلل والعصيان أن يراجعوا ربهم الرحمن، وفي هذا المعنى قال الإمام الشوكاني وهو يفسر هذه الآيات:

عصى أبو العالم وهو الذي ... من طينة صوره الله

وأسجد الأملاك من أجله ... وصير الجنة مأواه

أغواه إبليس فمن ذا أنا المسـ ... ـكين إن إبليس أغواه"(76)

ومن هنا نعلم لماذا جاءت قصة أكل آدم- عليه السلام- من الشجرة عقب قصة خلقه واستخلافه وتكريمه في سورة البقرة في الآيات (30) إلى (37) من سورة البقرة .

المبحث الثالث: من معالم الاستخلاف: العلم دليل التأهل للاستخلاف:

الدليل على كون الإنسان يستحق الاستخلاف في الأرض هو العلم فقد بين الله -تعالى- أن الله فضل آدم- عليه السلام- بذلك فقال: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾[البقرة:31]، والأسماء التي علمه الله إياها هي كما قال مجاهد: علمه اسم كل دابة، وكل طير، وكل شيء(77)، و ﴿كلَّها﴾ تأكيد لمعنى الاستغراق لئلا يتوهم منه العهد فلم تزد كلمة كلّ العمومَ شمولاً، ولكنها دفعت عنه الاحتمال(78)، ويدل على ذلك حديث أنس أن النبي- صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم- قال - : "يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا؟ فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء...))(79)، بل أخبر الله الملائكة بذلك حينما قال لهم ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾، وقول الله هذا موجه إلى الملائكة على وجه الإخبار ليسوقهم إلى معرفة فضل الجنس الإنساني على وجه يزيل ما علم الله أنه في نفوسهم من سوء الظن بهذا الجنس، وليكون كالاستشارة لهم تكريماً لهم، فيكون تعليماً في قالب تكريم، مثل إلقاء المعلم فائدة للتلميذ في صورة سؤال وجواب، وليسنَّ الاستشارة في الأمور، ولتنبيه الملائكة على ما دق وخفي من حكمة خلق آدم كذا ذكر المفسرون(80).

وفي آيات الاستخلاف في سورة البقرة ما يكفي للدلالة على أهمية العلم، وضرورة السعي في تحصيله، واكتسابه، وذكر الرازي ذلك بأبلغ بيان فقال: "هذه الآية دالة على فضل العلم فإنه سبحانه ما أظهر كمال حكمته في خلقه آدم- عليه السلام- إلا بأن أظهر علمه فلو كان في الإمكان وجود شيء أشرف من العلم لكان من الواجب إظهار فضله بذلك الشيء لا بالعلم" ثم بين أن الله تعالى سمى العلم بالحكمة وعظم أمرها، وذلك يدل على عظم شأن العلم وقد قال تعالى في البقرة: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً﴾[البقرة:269]، وقال في تأملٍ عجيب: "ثم تفكر أن الله تعالى ما أعطى من العلم إلا القليل قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً﴾[الإسراء:85]، وسمى الدنيا بأسرها قليلاً ﴿قُلْ متاع الدنيا قَلِيلٌ﴾[النساء:77]فما سماه قليلاً لا يمكننا أن ندرك كميته، فما ظنك بما سماه كثيراً"(81).

المبحث الرابع: أركان الاستخلاف:

وضحت آية الاستخلاف في سورة البقرة(30) أركان الاستخلاف، وهي خمسة أركان:

الأول: الله - سبحانه وتعالى- فهو الإله القادر الخبير البصير الذي شرف الإنسان بالاستخلاف كما كلفه بتبعاته.

الثاني: المخلوقات الأخرى المناظرة للبشرية: كالملائكة التي أخبرت بطبيعة الكائن الذي سيخلقه الله تعالى، ومن بعدها الجن أن إبليس دخل في أمر السجود لآدم- عليه السلام- .

الثالث: آدم- عليه السلام- (والمراد البشرية بوجه عام فآدم أبوها) .

الرابع: الأرض –منطلق الاستخلاف المكاني- .

الخامس: العلاقة بين الأركان الأربعة: العلاقة بين الله –تعالى- وبين المخلوق الذي جعل خليفة في الأرض (الإنسان)، وبين الإنسان وبين غيره من المخلوقات المناظرة له (الملائكة والجن)، وبين الإنسان وبين الأرض التي وجد عليها خليفة، وبين الإنسان وأخيه الإنسان...وهذه الأنواع الأربعة للعلاقات يجمعها مصطلح قرآني واحد هو الاستخلاف، وهو الحقيقة الكونية الثانية بعد الحقيقة الأولى وهي: أن الله إله الكون وخالقه، ويمكن الإشارة بإيجاز إلى هذه الأنواع الأربعة من العلاقات باعتبار أنها تفصل معنى الاستخلاف:

العلاقة الأولى: هي العلاقة بين الإنسان وبين ربه سبحانه وتعالى: فقد تقدم أن الله جعله خليفة في الأرض تشريفاً وتكليفاً والتكليف يتضمن الاختبار كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[الملك:2].

العلاقة الثانية: العلاقة بين الإنسان وبين غيره من المخلوقات المناظرة له (الملائكة والجن): أما الملائكة فعلاقة الإنسان بهم علاقة المحبة والود والرعاية والعناية "سخرها الرب الودود لتستغفر له في الدنيا، ولتستغفر لمن معه من الذين آمنوا...كانت تقول وهو حيٌّ صحيحٌ سويٌّ قوي... يعبد ربه الجليل...تترنم بأعظم كلمات المحبة التي بينها التنزيل...وتُظْهِرُ في كلماتها إشفاقاً عليه وعلى أصحابه في الدنيا في وقتٍ عزَّ فيه الصاحب المشفق: ﴿ربنا وسعت كل شيءٍ رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم﴾[غافر:7]، ﴿ربنا وأدخلهم جنات عدنٍ التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾[غافر:8]...يرى حبها له في

الدنيا...يحسُّ به...فيمتلئ قلبه طمأنينةً وبشْرًا"(82)، وكذلك علاقته بهم في الآخرة ما دام مؤمناً يسمع أصواتها العذبة، ويراها بهيئاتها النقية..وهي تزف له أعظم كلمةٍ كان ينتظرها منذ عرف الله والرسول والدنيا والآخرة والجنة والنار: لا تخف ولا تحزن...

وأما علاقته بالجن فالعلاقة العكسية إذ الجن هم أعداؤه الأصليون إلا أن يؤمنوا ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[فاطر:6].

الملائكة محبة للإنسان أمرها الله تعالى أن تسجد له فسجدت، أما إبليس وذريته من الجن فكفروا ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا﴾(الكهف:50)، فالعلاقة بهم علاقة عداوة إلا أن يؤمنوا.

العلاقة الثالثة: العلاقة بين الإنسان وبين الأرض التي جعله الله عليها خليفة تتضمن التشريف بكونه جُعِلَ سيداً عليها، والتكليف بكونه اختبر بها: ماذا سيصنع بذلك ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا﴾[الكهف:7]، وقد امتن الله تعالى بهذه النعمة العظيمة على الإنسان إذ شرفه بها دون غيره فقال: ﴿أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ﴾[النمل:62].

ولذا يفترض أن الإنسان يحب الأرض وهي تحبه فيرعى البيئة ويقوم بحمايتها كما أن الله جعلها مسخرة له في المقابل، وقد سبق الإسلام سبقاً عجيباً بإقرار هذا المعنى فقال النبي- صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم- على سبيل المثال: ((أحد جبل يحبنا ونحبه))(83).

العلاقة الرابعة: العلاقة بين الإنسان وبين أخيه الإنسان: علاقة تكامل وتعارف وتعاون على البر والتقوى وتفاعل إيجابي على إعمار الأرض كلٌّ بحسب ما أعطاه الله من درجات الاستخلاف كما سبق، وفي بيان هذه العلاقة يقول ربي سبحانه وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات:13]، وعلى هذا يتنوع الناس بحسب ما آتاهم الله من مواهب، وقسم عليهم من مكاسب وجماع ذلك ما روي عن أبي بكر الصديق-رضي الله عنه- قال: (الضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله)(84)، ويذكر عن علي -رضي الله عنه - في كلام له إلى واليه على مصر: (الناس صنفان: إما أخ لك في الإسلام، وإما نظير لك في الخلق- أخوك في الإنسانية. يفرط منهم الخطأ والزلل، وتغلب عليهم العلل، ويؤتى على أيديهم من العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثلما تحب أن يعطيك الله من العفو والصفح، فإنك فوقهم ووالي الأمر فوقك والله فوق من ولاك"(85).

المبحث الخامس: قانون المسؤولية الاستخلافية:

بين الاستخلاف والائتمان:

الاستخلاف يجمع العلاقات الأربعة وعلى هذا فمعنى الخلافة يتضمن معنى الائتمان أي القيام على الأمانة التي من أجلها خلق، وخلاصة معنى الأمانة هنا المحافظة على العلاقات الأربعة في الجانب الذي يرضي الله - تعالى- ، وقد ضيعها الإنسان

الكافر الجاحد بآيات الله تعالى كما قال- تعالى- : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا ﴾[الأحزاب:72] فمعنى حملها هنا خانها كما قال الزمخشري: "من قولك: فلان حامل للأمانة ومحتمل لها تريد أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته ويخرج عن عهدتها؛ لأن الأمانة كأنها راكبة للمؤتمن عليها وهو حاملها ألا تراهم يقولون: ركبته الديون ولي عليه حق فإذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حاملاً لها..ومنه قولهم أبغض حق أخيك؟ لأنه إذا أحبه لم يخرجه إلى أخيه ولم يؤده وإذا أبغضه أخرجه، وأداه فمعنى ﴿فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان﴾ فأبين إلا أن يؤدينها وأبى الإنسان إلا أن يكون محتملاً لها لا يؤديها"(86) والمقصود الإنسان الكافر.

قانون المسؤولية الاستخلافية:

ويمكن تلخيص هذا القانون على النحو الآتي: من أهم أهداف الاستخلاف: النظر في كيفية عمل الإنسان إيجاباً أو سلباً:

ذكر الله- سبحانه وتعالى- في القرآن الكريم هذا المعنى الجوهري في حياة الإنسانية، وأكده في أكثر من موضع؛ إذ الإنسان خليفة وهو تحت نظر الله تعالى في كيفية عمله: أينجح في الاختبار فيكون عمله حسناً طاعة لله وإعماراً للأرض أم بضد ذلك كما قال -تعالى- ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف:129]، أي ليختبر في تنفيذ أوامر الله تعالى وأداء الأمانة التي استؤمن عليها، وقوله ﴿فينظر﴾ أي يعلم بنظره علم ظهور ووقوع وإلا فهو سبحانه يعلم ما كان وما يكون قبل أن يكون .

ومن ذلك قول الله - تعالى- : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[الأنعام:165]، ومعنى الآية كما يقول الطبري: يقول - تعالى ذكره- لنبيه محمد- صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم- وأمته: "والله الذي جعلكم أيها الناس خلائف الأرض بأن أهلك من كان قبلكم من القرون والأمم الخالية، واستخلفكم فجعلكم خلائف منهم في الأرض تخلفونهم فيها وتعمرونها بعدهم"(87)، والآية صريحة في أن أهم غايات الاستخلاف غير التشريف والتكليف الابتلاء، ولكن الظاهر أن قصر الخطاب على أمة النبي - صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم- فيه نظر، بل الآية خطاب للبشرية ، وبين تعالى أن هذا الوصف (الاستخلاف) شامل للبشرية فكلهم يخلف الآخر، وكلهم في محل نظر الله -تعالى- : كيف يعملون فيما كلفهم به: قياماً بأمره وإعماراً للأرض كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[يونس:14](88)، وفصل ابن كثير هذا المعنى فقال: "أخبر -تعالى- عما حل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاء هم به من البينات والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم وأرسل إليهم رسولاً لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله"(89)، ونحو هذا قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾[يونس:73]، وقد قال - سبحانه- مبيناً أن كل قوم يخلفون آخرين: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾[الأعراف:169/

مريم:59]، ومثل لذلك باللفظ الصريح في قوم عاد فقال -سبحانه- : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[الأعراف:69]، وفي قوم ثمود فقال -سبحانه- : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾[الأعراف:74].

وأكد هذا المعنى في السورة التي سميت باسم الله -تعالى- (فاطر) أي خالق ليبين العلاقة بينه -سبحانه وتعالى- وبين البشر الذين خلقهم، وبين الأرض التي جعلهم خلائف فيها فقال سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾[فاطر:39].

نوع العمل المطلوب من الإنسان المستخلف:

نلحظ أن الآية في سورة فاطر اتخذت طابعاً تعميمياً فالخطاب للبشرية وليس لقوم دون آخرين...وكلهم سيتم سؤالهم يوم القيامة عن أعمالهم، وقد بين في آية الاستخلاف في سورة ص أن وجود الحكمة من خلق الكون يقتضي عدم التسوية بين مؤمن عمل الصالحات وبين مفسد في الأرض كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:28]فكل عمل يفسد في الأرض يعاقب عليه الإنسان، وكل عمل يصلحها ويعمرها وينميها يكافئ عليه إما في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً بناء على قانون المسؤولية الاستخلافية...وهذه المسؤولية تزداد تشديداً وتأكيداً إذا كبر عمل الإنسان كأن صار حاكماً، ولذا قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: "إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثًا: لا يشترون به ثمنًا قليلا، ولا يتبعون فيه الهوى، ولا يخشون فيه أحدًا، ثم تلا ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[ص:26]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة:44]، وقال ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[المائدة:44](90).

وعلى ما سبق فـ"إن إنسان الاستخلاف هو الإنسان الذي يتطابق مع الخطاب الإلهي، ويستجيب لنداء الإسلام، ويمارس وظائفه الأساسية في: العبادة، والإعمار، والإنقاذ، والتعارف، ويسعى دوماً إلى إيجاد الشروط التي تأهله لتقديم الإسلام للناس، وتوفير الوسط الذي تعيش فيه تعاليمه، وتشريعاته، وتسمو فيه ذات الإنسان، وتتكرم، وتتصارع فيه الحسنة مع السيئة، فتغلبها الحسنة"(91)

كيفية استمرار خلافة الإنسان في الأرض:

وضع الله لعباده خطة استمرارهم في خلافة الأرض بما يرسم أصول السياسة السكانية في القرآن حتى يأتي أجل القيامة الذي يعلمه الله تعالى، وهذه الخطة المرسومة هي التناسل، فقد قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء:1]، وفي الآية دقائق تفسيرية عديدة أهمها: أن الله تعالى خاطب البشرية جميعاً وبين أنه خلقهم من نفس واحدة ليظهر أنه يجب التعاون بينهم لا التنافر، والتكامل لا الاقتتال كما قال الطبري في كلام عجيب يوضح سبق الإسلام إلى إقرار العلاقات الإنسانية : "وصف - تعالى ذكره- نفسه بأنه المتوحد بخلق جميع الأنام من شخص واحد معرفاً عباده كيف كان مبتدأ إنشائه ذلك من النفس الواحدة، ومنبههم بذلك على أن جميعهم

بنو رجل واحد وأم واحدة، وأن بعضهم من بعض، وأن حق بعضهم على بعض واجب وجوب حق الأخ على أخيه لاجتماعهم في النسب إلى أبٍ واحد وأمٍ واحدة، وأن الذي يلزمهم من رعاية بعضهم حق بعض وإن بعد التلاقي في النسب إلى الأب الجامع بينهم مثل الذي يلزمهم من ذلك في النسب الأدنى وعاطفاً بذلك بعضهم على بعض ليتناصفوا ولا يتظالموا وليبذل القوي من نفسه للضعيف حقه بالمعروف"(92).

أهم النتائج والتوصيات التي خرج بها البحث:

1) مفهوم (الاستخلاف) في القرآن الكريم يعطي الصورة الدقيقة للهوية الإنسانية، وحقيقة الوجود الإنساني في الأرض.
2) الرجوع إلى دراسة مفهوم الاستخلاف في القرآن الكريم يساعد على توضيح أصول السياسة العامة التي يجب أن يسير عليها الإنسان في حياته الفردية، كما ينبغي أن تتحرك بها الدول في خططها التنموية، ويوضح أهداف الوجود الإنساني على المستوى الفردي والجماعي.
3) يجب على الأفراد والدول أن يستغلوا الخيرات التي وهبها الله لهم في الأرض، وسخرها لهم، ولم يذكر القرآن الكريم النعم المسخرة للإنسان (ما في السموات والأرض) إلا ليجتهد في دراستها، واستثمارها بما يؤدي إلى إعمار الأرض، وإسعاد المجتمعات.
4) استنتج الباحث أن أهداف الخلافة الإنسانية تتلخص في أمرين: القيام بأمر الله تعالى من خلال عبادته المحضة، والقيام بأمره من خلال عمارة الأرض.
5) توصل الباحث إلى أن الواجب الإنساني لتحقيق هدف الاستخلاف يتم من خلال سياسة الدين والدنيا بالحق (العدل والقسط)، وأن إعمار الإنسان المستخلف للأرض لا بد أن يقوم على ركيزتين: العدل الذاتي والسياسي العام، والإحسان للنفس وللناس.
6) استنتج الباحث أن أهم مقامات الاستخلاف بحسب التوصيف القرآني أربع مقامات: مقام المَلَكات الوهبية والقدرات الكسبية، ومقام الأفعال والتصرفات الإنسانية وما يترتب عليها من مسؤولية، ومقام الحكم والملك الإنساني على أفراد بني الإنسان، ومقام المال والموارد الاقتصادية.
7) استنتج الباحث أن العلم هو دليل التأهل للاستخلاف، ومن ثم يوصي البحث بضرورة تفعيل المؤسسات التعليمية، وإعطائها الأولوية في الخطط التنموية، والموازنات المالية للدول والأفراد.
8) توصل البحث إلى قانون المسؤولية الاستخلافية الذي يحدد الواجبات والمسؤوليات والحقوق على الإنسان في الأرض.
9) ظهر من خلال البحث الجمال والدقة التعبيرية للقرآن الكريم في توصيف المفاهيم، ولذا يوصي الباحث بتفعيل آليات التدبر القرآني، ونشر ذلك على المستوى الفردي والجماعي.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

الهوامش

1. انظر: (الزركشي) بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الشافعي ت794هـ: البرهان في علوم القرآن1/194، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 1957م، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، (السيوطي) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر أبو الفضل ت911هـ: الإتقان في علوم القرآن1/39، المكتبة الثقافية، بيروت .
2. لا بد من وجود حكمة في الترتيب بناء على القول بأن ترتيب المصحف توقيفي لا اجتهادي، وينظر في الأقوال الواردة في الترتيب: (القرطبي) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي أبو عبد الله: الجامع لأحكام القرآن1/95، 1405هـ - 1985م، دار إحياء التراث العربي - بيروت، وانظر: (الآلوسي) محمود شكري البغدادي ت 1275هـ : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني1/26، قرأه وصححه : محمد حسين العرب، دار الفكر - بيروت، 1417هـ - 1997م، وذكر أن رأي الجمهور أن الترتيب توقيفي- وهو الذي يميل إليه كاتب البحث- ، وانظر أيضاً: (ابن عاشور) محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : 1393هـ): التحرير والتنوير1/47، ط1، 1420هـ- 2000م، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، وفصل الزركشي المسألة في البرهان 1/ 257، مرجع سابق، ورجح التوقيفية، وكذلك فصلها السيوطي في ترتيب سور القرآن ص70. انظر: (السيوطي) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر أبو الفضل ت911هـ: أسرار ترتيب القرآن، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام – القاهرة. ومال فيه إلى التوقيفية تبعاً لابن حجر على تفصيل، كما أشار إلى المسألة في الإتقان1/ 170 مرجع سابق، وذكر أن قول الجمهور بأن الترتيب اجتهادي!، وانظر أيضاً: (الزرقاني) محمد عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن1/244، ط3، 1943هـ، دار إحياء الكتب العربية. ، والمسألة بحاجة إلى تنقيح وتدقيق في عزو الأقوال ومناقشة وجوه الاستدلال على أن الزركشي حاول أن يجعل الخلاف لفظياً .
3. الطبري) محمد بن جرير الطبري أبو جعفر ت310هـ: جامع البيان في تأويل القرآن1/452، ط3، 1388هـ- 1968م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
4. انظر: تفسير القرطبي 1/264، مرجع سابق.
5. الشنقيطي) محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن1/20، عالم الكتب - بيروت.
6. تفسير القرطبي14/ 308،مرجع سابق.
7. الطبقات الكبرى لابن سعد 3/ 183، ورواه أحمد1/10، مرجع سابق، وضعفه محققه شعيب الأرناؤوط، ورواه (الخلال) أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد أبو بكر: السنة1/274، د. عطية الزهراني، ط1، 1410هـ،دار الراية – الرياض.
8. ابن كثير) عماد الدين إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء ت774هـ: تفسير القرآن العظيم4/391، تقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، إعداد: مكتب تحقيق دار احياء التراث العربي، أعد فهارسها: رياض عبد الله عبد الهادي ط1، 1417- 1997م، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
9. (البيضاوي) ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي أبوالخير ت685هـ: تفسير البيضاوي المسمى بأنوار التنزيل وأسرار التأويل1/297، تحقيق عبد القادر عرفات حسونة، دار الفكر، بيروت، 1416هـ- 1996م.
10. انظر: تفسير الطبري1/232، ابن كثير1/104، التحرير والتنوير1/228، أضواء البيان1/20، مراجع سابقة.
11. (الفراهيدي): أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد: كتاب العين4/267، تحقيق : د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

12. (ابن منظور) محمد بن مكرم بن علي ت 711هـ: لسان العرب89/9، اعتنى بتصحيحها : أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، ط1، 1416هـ- 1995م، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي - بيروت.
13. أضواء البيان 20/1، مرجع سابق.
14. تفسير الطبري232/1، مرجع سابق.
15. أضواء البيان7 / 435، مرجع سابق.
16. (القشيري) أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري النيسابوري الشافعي: تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات200/3، تحقيق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، ط1، 1420هـ- 2000م، دار الكتب العلمية - بيروت/لبنان.
17. (ابن عادل) أبو حفص عمر بن على ابن عادل الدمشقى الحنبلى المتوفى بعد سنة 880 هـ: تفسير اللباب في علوم الكتاب120/20، دار الكتب العلمية - بيروت.
18. التحرير والتنوير228/1، مرجع سابق.
19. (الرازي) فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي ت 606هـ: التفسير الكبير (مفاتح الغيب)165/13، دار إحياء التراث العربى/ بيروت.
20. انظر: التحرير والتنوير228/1،مرجع سابق .
21. أضواء البيان 20/1. مرجع سابق
22. أضواء البيان 20/1. مرجع سابق
23. وانظر بحث المسألة في: (ابن القيم) محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ص151، دار الكتب العلمية – بيروت، وكذلك: بكر بن عبد الله أبو زيد: معجم المناهي اللفظية ص226،ط3، 1417هـ- 1996م، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية في حرف الخاء، مآلات الخطاب المدني لإبراهيم السكران ص53 كتاب إلكتروني، وانظر ملتقى أهل الحديث على الشبكة الالكترونية.
24. رواه الحاكم في المستدرك510/4، وصححه ووافقه الذهبي. انظر: (الحاكم) محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط1، 1411هـ - 1990م،دار الكتب العلمية – بيروت، ورواه أحمد277/5، وضعفه المحقق، انظر: (الشيباني) أحمد بن حنبل الشيباني أبو عبد الله ت241هـ: مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط2، 1420هـ ، 1999م، مؤسسة الرسالة، بيروت، وقال ابن كثير في النهاية في الفتن والملاحم 29/1: هذا إسناد قوي صحيح، انظر: (ابن كثير) عماد الدين إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء ت774هـ : النهاية في الفتن والملاحم، ط1، 1408هـ - 1988م دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.وقال البوصيري: هذا اسناد صحيح، انظر: (البوصيري) أحمد بن أبي بكر الكناكي (ت 840 هـ): مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، دار الجنان، بيروت.
25. رواه أحمد403/5، وحسنه المحقق، مرجع سابق.
26. ()(الشافعي) محمد بن إدريس أبو عبد الله: السنن المأثورة ص425، تحقيق: د. عبد المعطي أمين قلعجي، ط1، 1406هـ، دار المعرفة- بيروت، ورواه الحاكم في المستدرك84/3، وصححه ووافقه الذهبي، مرجع سابق.
27. نعيم بن حماد المروزي أبو عبد الله: الفتن ص103، تحقيق: سمير أمين الزهيري، ط1، 1412هـ، مكتبة التوحيد– القاهرة.
28. انظر: تفسير ابن كثير 4/ 128 .مرجع سابق
29. وانظر: مآلات الخطاب المدني لإبراهيم السكران ص53، مرجع سابق.
30. (ابن تيمية) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس ت728هـ: منهاج السنة النبوية510/1، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، ط1، 1406هـ، مؤسسة قرطبة، وانظر: له أيضاً: الفتاوى الكبرى119/5، تحقيق : حسنين محمد مخلوف، ط1386،1، دار المعرفة – بيروت.

31. (مسلم) بن الحجاج النيسابوري أبو الحسين ت261هـ: صحيح مسلم4/104، مراجعة: محمد فؤاد عبد الباقي، 1374هـ - 1954م، دار إحياء التراث العربي/ بيروت..
32. مسلم8/197، مرجع سابق.
33. انظر: تفسير الطبري1/ 452مرجع سابق، ابن كثير1/ 220 مرجع سابق.
34. تفسير الرازي1/ 444، مرجع سابق.
35. انظر: تفسير الرازي4/ 63، مرجع سابق.
36. تفسير الرازي1/ 451، مرجع سابق.
37. تفسير الطبري1/232، مرجع سابق.
38. (ابن عجيبة) أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس: البحر المديد5/226، ط2، 2002 م - 1423 هـ دار الكتب العلمية. بيروت.
39. (أبو حيان)أثير الدين محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي: البحر المحيط4/253، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض،ط1، 1422 هـ - 2001م، دار الكتب العلمية- لبنان/ بيروت.
40. وانظر لتفصيل ذلك: مآلات الخطاب المدني لإبراهيم السكران ، مرجع سابق.
41. تفسير ابن كثير 4/ 128، مرجع سابق.
42. انظر: (الماوردي) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (450هـ): أدب الدنيا والدين ص 17، حققه مصطفى السقا، دار الفكر .
43. انظر: (ابن تيمية) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس ت728هـ: مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية،15/241، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، دار عالم الكتب- الرياض، 1421 - 1991م .
44. أضواء البيان3/215، مرجع سابق.
45. أضواء البيان6/339، مرجع سابق.
46. فتح القدير 1/67، مرجع سابق.
47. تاريخ الطبري3/34، مرجع سابق.
48. تفسير الرازي1/196، مرجع سابق.
49. الطبري12/635، مرجع سابق .
50. (السمرقندي) نصر بن محمد بن أحمد أبو الليث: تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم3/358، تحقيق: د.محمود مطرجي، دار الفكر - بيروت.
51. تفسير الرازي 22/41، مرجع سابق.
52. تفسير الرازي 29/76، مرجع سابق.
53. أضواء البيان 7/489، مرجع سابق.
54. تفسير القرطبي10 /151، مرجع سابق.
55. (الزمخشري) جار الله محمود بن عمر الخوارزمي أبو القاسم ت538هـ: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل3/382، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
56. (زيدان) عبد الكريم (دكتور): السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية ص10، ط2، 1414هـ- 1993م مؤسسة الرسالة.
57. تفسير الألوسي10/ 254 مرجع سابق.
58. انظر: أضواء البيان2/341، مرجع سابق.
59. أضواء البيان 4/21، مرجع سابق.
60. تفسير الرازي1/196، مرجع سابق.
61. (السيوطي) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر أبو الفضل ت911هـ: الدر المنثور1/106، دار الفكر- بيروت ، 1993.
62. الطبري1/443 ، مرجع سابق.
63. رواه:(البخاري)محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن المغيرة الجعفي أبو عبد الله (256هـ)(256هـ): صحيح البخاري5/2365، مراجعة د. مصطفى ديب البغا، 1407هـ - 1987م، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت.
64. (ابن حجر) شهاب الدين أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني أبو الفضل ت852هـ: فتح الباري شرح صحيح البخاري11/259، حقق أصولها : عبد العزيز بن باز رقم كتبها وأبوابها وأحاديثها محمد فؤاد عبد الباقي ط1، 1410هـ - 1989م، دار

الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ط1، 1410هـ - 1989م.

65. (المزي) جمال الدين يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج ت742 هـ: تهذيب الكمال277/11، مراجعة : بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، - بيروت 1400هـ - 1980م.
66. تفسير الرازي 166/26، مرجع سابق.
67. رواه: أحمد55/6، مرجع سابق، و(الطبراني) سليمان بن أحمد بن أيوب، مسند الدنيا أبو القاسم ت360 هـ: المعجم الكبير247/8، مراجعة: حمدي عبد الحميد السلفي، ، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، 1404 هـ - 1983م، ورواه: (أبو يعلى) أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي (ت307هـ): مسند أبي يعلى438/7، مراجعة: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، 1404هـ - 1984م.
68. تفسير ابن كثير268/2، مرجع سابق.
69. مسلم4/ 2098 ، مرجع سابق.
70. انظر: (النووي) محيي الدين يحيى بن شرف بن مري النووي أبو زكريا ت 676هـ: شرح النووي على صحيح مسلم55/17، دار إحياء التراث العربي، بيروت،ط2، 1392هـ.
71. مسلم2109/4، والزيادة عند أحمد بن حنبل334/2، وقال المحقق: صحيح على شرط مسلم.
72. البخاري3/ 1166، مسلم4/ 2107، مرجعان سابقان.
73. تفسير الطبري190/21، مرجع سابق.
74. ابن كثير548/2، مرجع سابق.
75. فتح القدير3/ 558 ، مرجع سابق.
76. فتح القدير3/ 558 ، مرجع سابق.
77. فتح القدير3/ 558 ، مرجع سابق.
78. التحرير والتنوير217/1، مرجع سابق.
79. فتح القدير3/ 558 ، مرجع سابق.
80. التحرير والتنوير228/1، مرجع سابق.
81. تفسير الرازي1/ 457، مرجع سابق.
82. انظر: (المجيدي) عبد السلام مقبل (دكتور): قصة رحلة الخلودص35، دار طويق، الرياض، 1425هـ.
83. البخاري 2/ 539، مرجع سابق.
84. (الهندي) علي بن حسام الدين المتقي: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال835/3، مؤسسة الرسالة - بيروت، 1989م، (ابن كثير) عماد الدين إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء ت774هـ:البداية والنهاية301/6، مكتبة المعارف - بيروت، ومعنى أريح عليه حقه: يقال: أرحت على الرجل حقه إذا رددته عليه.
85. (القلقشندي) أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا10/ 11، والنص من أجمل النصوص وأجمعها على أنه محتاج لسبر غوره من الناحية الحديثية، و يتسامح في مثل هذا على ما هو معتاد.
86. الكشاف1011/3، مرجع سابق، ونقله النسفي على تقصير. انظر: (النسفي) عبدالله بن أحمد بن محمود حافظ الدين أبو البركات: مدارك التنزيل وحقائق التأويل317/3، تحقيق الشيخ: مروان محمد الشعار، دار النفائس- بيروت، 2005م، وراجع في حل هذا الإشكال الوارد في الآية (المجيدي) عبد السلام مقبل (دكتور): التنوير في أصول التفسيرص130، دار عبادي للنشر، صنعاء، 1427هـ.
87. تفسير الطبري 114/8، مرجع سابق.
88. انظر: الدر المنثور 411/3، مرجع سابق.
89. تفسير ابن كثير538/2، مرجع سابق.
90. تفسير ابن كثير4/ 356، مرجع سابق.
91. كتاب الأمة العدد43: المنهج النبوي والتغيير الحضاري للأستاذ برغوث عبد العزيز بن المبارك ، منشور ضمن موقع السلسلة في الشبكة .
92. تفسير الطبري 3/ 565، مرجع سابق.